المظاهر الحضارية للإمارة التغلبية (٧٢٠هـ/١٣٢٠م-٨١٦هـ/١٤١٣م)

د.افتخار عبد الحكيم رجب العكيدي
كلية التربية للبنات / قسم التاريخ

المقدمة

من العسير على المؤرخ حصر جميع المراحل التي مرت بها الحضارة الإسلامية في آسيا تحديدا وذلك لغزارة النتاج الحضاري الضخم للإمارات الإسلامية إلى جانب تعدد اللغات التي كتبت بها الأدبيات الحضارية كالفارسية والهندية إلى جانب العربية التي ساعد الإسلام على نشرها لكونها لغة الكتاب العظيم ،والإمارة التغلبية مثلت واحدة من المراكز الحضارية التي أرست لقواعد الانتشار الحضاري فكانت حلقة الوصل بين الحضارة الإسلامية بتنوع أجناسها وبين الحضارات الهندية المتعددة وهذه الدراسة معنية بتتبع الأثر الذي تركته في مراحل وجودها فكانت للنظم الإدارية والعمرانية والحركة العلمية والعناية بالعلماء وإنشاء المدارس والمجالس العلمية ونظم الرعاية الاجتماعية والحركة العمرانية الواسعة التي شهدتها الإمارة على يد سلاطينها المتعاقبين فكانت القصور والمساجد شواخص عمرانية أشرت العقلية العمرانية المميزة كما سيتضح.

أما النظم الاقتصادية فقد راعت أولوية تمتين اقتصاد الإمارة ورفع المستوى المعيشي فكانت الأنهار والآبار واستصلاح الأراضي وتوسيع رقعة الإنتاج الزراعي تمثل أهم إنجازات الإمارة على مر العصور.

ولابد من الإشارة إلى أهم الظروف التي مرت بها الإمارة والتي تركت أثرها الكبير على الأداء الحضاري إن صح التعبير لتلك الإمارة الإسلامية وتتمثل بالحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية لكي يكون القارئ على بينة من الأسباب التي ساهمت في انتهاء حكم الأسرة التغلبية في ٨١٦هـ/١٤١٣م.

النظم الإدارية: على الرغم من عدم توافر معلومات وافية عن النظم الإدارية في الإمارة التغلبية إلا إن من المؤكد أنها اقتبست النظم من الهند إذ أنها كانت وريثة الإمارة الخلجية ذات النظم المتكاملة(١)

١-السلطنة

كان نظام الحكم في الإمارة التغلبية قائما إلى أساس الوراثة إلا أن سلاطين الإمارة لم يتبعوا سياسة ثابتة في قضية ولاة الحكم بعدهم،فعندما لم يترك السلطان محمد تغلق شاه (٧٢٥هـ/١٣٢٥م-٧٥٢هـ/١٣٥٠م) وريثا للعرش من ذريته رشح ابن عمه فيروز شاه ليكون ولي عهده إلا انه لم يعلن ذلك بشكل رسمي الأمر الذي أدى إلى حدوث اضطرابات وخلافات في تحديد من يتولى العرش بعده الامر الذي دفع بكبار رجال الإمارة والأمراء إلى تتويج فيروز سلطانا وقد رفض في أول الأمر إلا انه وافق بعد إصرار هم على توليه الإمارة (٢)

وقد يعهد السلطان إلى غيره ليتولى شؤون الحكم حين يعجز عن تحمل أعبائه كما حدث عندما توفي ابن السلطان فيروز شاه وولي عهده فتح خان سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤م) الأمر الذي احزن والده كثيرا كما ساهم تقدمه في السن في إضعاف قدرته على تحمل أعباء الحكم فعهد إلى ابنه محمد لتولي الأمر بدلا عنه إلا أن الاخيرلم يحسن التصرف ولم يكن بمستوى المسؤولية فثارت عليه الرعية وأبوه الذي سارع إلى عزله عن ولاية العهد وإسنادها إلى حفيده تغلق بن فتح خان الذي تولى الحكم بعد وفاة فيروز شاه سنة(٧٩٠هـ/١٣٨٨م) .(٣)

٢-الوزارة : وتعاقب على تولي هذا المنصب عدد من الوزراء الذين كان لهم شان كبير في الإمارة واتصفوا بعدد من الصفات التي أهلتهم لتولي هذا المنصب ومن كبار الوزراء في الإمارة الوزير احمد بن اياس المعروف بخواجه جهان الذي استوزره السلطان محمد بن تغلق بعد أن كان متولي شحنة العمارة في عهد السلطان غياث الدين بن تغلق (٥)

ونال حظوة كبيرة عند السلطان على الرغم من كونه رومي الأصل(٦) لهندسته بناء الكشك الذي سقط على والده السلطان غياث الدين وقتله سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)(٧) وعلى ما يبدو فالسلطان محمد قد كافأه على ذلك باستيزاره.

٣-الكتاب:

كان لدى سلاطين الإمارة عدد من الكتاب الذين يتولون تحرير كتب السلطان وأوامره إلى الولاة والقواد وكبار الموظفين (٨) كما وجد في الإمارة عدد من الكتاب الذين اتخذوا الباب الثالث لقصر السلطنة في عهد السلطان محمد بن تغلق مقرا لهم في الدكاكين الموجودة فيه وكانت وظيفتهم كتابة كل ما يحدث في الباب من أمور ويتم تعيين أحد أبناء السلاطين لإيصال ما يكتبونه إلي السلطان(٩) ونظرا لمكانة الكتاب فانهم كانوا يقفون خلف الوزير من السلطان عند جلوسه للناس (١٠).

٤-الحجابة:

وهي من المناصب الكبيرة في الإمارة ومن يتولى هذه الوظيفة يسمى الحاجب ويقوم بتنظيم دخول الموظفين والناس الى السلطان فهو بمثابة حلقة لوصل بين السلطان والناس(١١) ونظرا لأهمية الحجابة كان لها ديوان خاص بها واهم الوظائف في هذا الديوان هي خاص الحاجب وله نائب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحاجب وسيد الحجاب وهناك جماعة تحت أيديهم (١٢ولاهمية الحجابة فإنها كانت تسند إلي الأمراء ويقف الحجاب خلف الوزراء والكتاب من السلطان عند جلوسه للناس (١٣)وكان السلاطين يبعثون إليهم الخلع والهدايا في الأعياد(١٤)وابرز من تولى هذه الوظيفة في الإمارة هو فيروز شاه الدهلوي ابن عم السلطان محمد تغلق الذي تولى أمر السلطنة بعد وفاة الأخير(١٥) وكذلك الشريف المازندراني حاجب الغرباء الذي استقبل الرحالة ابن بطوطة عند قدومه إلى الهند(١٦)

٥-وظيفة النقباء:

وهذه الوظيفة تلي الحجابة من حيث الأهمية إذ يتم جلوس النقباء بالنسبة للسلطان بعد الحاجب ويبلغ عدد النقباء في الإمارة مائة، وكان الحجاب والنقباء يقومون عند جلوس السلطان بالمناداة بأعلى أصواتهم "بسم الله " وبالنظر لمكانة النقباء عند السلطان كان يبعث لهم الخلع والهدايا(١٨).

٦- الولاة:

بالنظر لاتساع حدود الأمارة التغلقية فقد قسمت إلى عدة ولايات وعهد السلاطين بإدارتها إلى ولاة وعمال ينوبون عنهم في حكمها(١٩) وكان السلطان غياث الدين نفسه واليا على مدينة دبال بور بتكليف من السلطان قطب الدين خلجي اثر انتصاره على المغول في عهد الإمارة الخلجية(٢٠) ويجري تعيين الولاة من قبل السلطان كما هو الحال على أيام الإمارة الخلجية وحكم الولايات التغلقية عدد من الولاة الكفوئين وغير الكفوئين (٢١)

٧- القضاء:

وهو من المناصب المهمة في الإمارة لما له من مساس مباشر بالحياة الدينية والدنيوية على حد سواء إذ يراد بالقضاء الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع وفقا للأحكام الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة (٢٢)أبدى السلاطين التغلقيين اهتماما كبيرا به وحرصوا على ان يعينوا القضاة بأنفسهم ممن عرفوا بالعلم بالكتاب والسنة ومن ابرز الشخصيات التي

تولت القضاء الشيخ كمال الدين بن البرهان الغز نوي للقب بصدر الجهان إذ تولى منصب قاضي القضاء في الهند والسند وهو الذي زود ابن بطوطة بالأخبار (٢٣) كما تولى هذه الوظيفة أيضا صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي(٢٤) الذي كان أخوه قطلوخان معلم السلطان وهو من مدينة هانسي*(٢٥) ومن قضاة الإمارة ضياء الدين البرتي (٢٦) كما اسند منصب القضاء في دلهي إلى الرحالة ابن بطوطة أثناء أقامته بالهند أبان حكم الإمارة التغلقية ،وولي القاضي محمد معروف القضاء بمدينة اميتهي سنة ٧٤٥هـ في أيام محمد شاه تغلق (٢٧).

٨-نظام البريد

وجد في الامارة نظاما بريدا محكما انشائه الملك غازي تغلق بلغ في دقته وسرعته ان وصلت الحاضر (دلهي) اخبار الرحالة العربي ابن بطوطة عقب وصوله السند بأيام خمسه قطع البريديون فيها تسعمائه من الاميال واشار الرحالة بما كانت عليه الهند من حضارة ومدينة آل تغلق .(٢٨)

٩- وظيفة السلحدارية:

والقائم بها يكون موكلا بالسلاح (٢٩) ووجد عدد كبير من السلحدارية،وقد يقف على يمين السلطان عند جلوسه للناس مائة ومثلهم على يساره(٣٠)

ثانيا-الحركة الفكرية

قام سلاطين الإمارة التغلقية بدور كبير في رفد إمارتهم بمقومات الازدهار الحضاري أصبحت الحاضرة دلهي في عهدهم قبلة لرجال العلم والفن (٣١) لما عرفوا به من حب العلم وتشجيع العلماء فضلا عن كونهم أصحاب معرفة فكان السلطان غياث الدين(٧٢٠هـ-٧٢٥هـ) يكرم العلماء والمشايخ ويعظمهم.(٣٢) أما السلطان محمد بن تغلق شاه(٧٢٥هـ-٧٥٢هـ) فكان على جانب كبير من الثقافة وحب المنطق(٣٣)كما أتقن عددا من العلوم والآداب فقد نبغ في الطب حتى قام بعلاج الناس وأقام لهم جملة من دور الشفاء فضلا عن معرفته بالعربية ونظمه للشعر العربي (٣٤) و بما انه كان على مذهب الإمام أبي حنيفة فقد حفظ كتاب الهداية في هذا المذهب(٣٥)و أبدى اهتماما وعناية فائقة بتوفير الأجواء المناسبة للعلماء وأغدق الأموال عليهم وعلى الأدباء والخطاطين إذ تذكر المصادر أن ياقوت المستعصمي الذي كان يعد من اشهر الخطاطين الذين ظهروا في المشرق قد ظفر بمائتي ألف مثقال من الذهب أجرا لنسخه كتاب الشفاء لابن سينا للسلطان محمد(٣٦) الأمر الذي دفع عددا كبيرا من العلماء والأدباء إلى التوجه للهند طلبا للهدوء والاستقرار لمواصلة نشاطهم الفكري والعلمي(٣٧) ومن الفقهاء الذي وفدوا إلى الإمارة علاء الملك فصيح الدين الهروي الخرساني أحد فقهاء الحنفية وقاضيا بهراة ولمكانته ولاه السلطان محمد بن تغلق على مدينة لاهري واعمالها من بلاد السند (٣٨) وكذلك وفود الرحالة العربي ابن بطوطة إلى بلاطه نظرا للمكانة التي حصل عليها بقي في الهند لمدة ثمان سنوات تولى خلالها القضاء في دلهي كما ورد ذكره كما أرسل من قبل السلطان محمد بسفارة إلى إمبراطور الصين (هيون- ني).(٣٩)

وفي عهد السلطان فيروز شاه (٧٥٢هـ- ٧٩٠هـ) الذي كان نفسه صاحب مؤلفات منها كتاب(كتاب في الرياسة والسياسة) الذي رتبه على ثمانية أبواب وأمر بنقشها على الأحجار وتنصيبها في المنارة المثمنة من الجامع الكبير بفيروز آباد دهلي(٤٠) كما اخترع ساعة يخرج منها صوت على راس كل ساعة ويستعلم منها أوقات الليل والنهار وإفطار الصوم وكيفية الإظلال وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول ونصبت تلك الساعة في الحاضرة فيروز آباد (٤١)

وأدى شغف هذا السلطان بالمعرفة والاهتمام بالعلماء إلى إغداق ألا موال عليهم وتخصيص رواتب للمدرسين الذين قدموا للبلاد للاشتغال في مدارسها العديدة كما خصصها للقائمين في الزوايا والقصور والمستشفيات(٤٢).

ونشطت حركة الترجمة في عهده بعد فتح قلعة نكر كوث** التي وجد فيها مكتبة هندوسية تضم ألفا وثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم فامر إن تترجم الكتب السنسكريتية الثمينة إلى الفارسية وذلك في مجالات الرياضة والنجوم والأدب والموسيقى(٤٣) ومن ابرز المترجمين الذين عرفتهم الإمارة عز الدين خالد خاني الذي عهدت إليه ترجمة كتب الطب والفلسفة والفلك التي وجدت في قلعة نكر كوث من السنسكريتية الى الفارسية وكذلك أقسام من المهابهارتا وغيرها من الكتب الدينية والتاريخية القديمة٤٤ والفت في عهد السلطان فيروز شاه العديد من المؤلفات في مختلف العلوم ومنها كتاب في الحكمة الطبيعية والتفاؤل والتطير لعز الدين الخالد خاني الذي سماه (دلائل فيروز شاه) كما صنف القاضي ضياء الدين البرتي تاريخا للملوك دلهي ألف عين الملك كتابا بأمر فيروز شاه كما صنف السراج العفيف كتابا في أخباره (٤٥) وفي عهد السلطان محمد بن فيروز شاه (٧٩٢هـ-٧٩٦هـ) صنف مؤلفان هامان في علوم الدين هما (فقه فيروز شاه)و (فتاوىتاتارخاني)(٤٦) ومن اشهر علماء وفقهاء الإمارة :

- الشيخ سليمان بن احمد الملتاني المولود في مدينة الملتان *** وكان من العلماء البارزين في الفقه والأصول والحديث وقد دخل مدينة دلهي أيام السلطان غياث الدين تغلق شاه وله رسالة في أمر السماع وأخرى في فضل الأذكار (٤٧)
- الشيخ العابد صدر الدين الكهراني الذي كان يصوم الدهر ويقوم الليل وكان السلطان محمد تغلق يزوره لمكانته(٤٨)
- جلال الدين العلوي الحسني الكرماني أحد العلماء المشهورين في عصره ولي الصدارة في عهد السلطان فيروز شاه وكان عالما في المعقول والمنقول(٤٩)
- علاء الدين علي بن محمد الدهلوي ، ولد بدلهي واشتهر برسول دار وبعثه السلطان فيروز شاه إلى خواجة جهان كما بعثه في سفارة إلى خرا سان(٥٠)
- السيد العلامة يوسف بن جمال الدين الملتاني الذي كان أحد كبار فقهاء الحنفية ،ولد ونشا في مدينة الملتان وولاه السلطان فيروز شاه التدريس في المدرسة الفيروزية على الحوض الخاص وله مصنفات عده منها (اليوسفي) و(توجيه الكلام) وتوفى في سنة٧٩٠هـ.(٥١)
- نظام الدين الظفر آبادي وكان من مشايخ الجشتية قضى بعض عمره في التدريس والإفادة وهو شاعر كذلك وله مصنفات بالعربية والفارسية ،توفى سنة ٧٣٥هـ بظفر آبادي(٥٢)

ثالثا- الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الإمارة

ورث السلطان محمد بن تغلق شاه (٧٢٥هـ-٧٥٢هـ) ملكا واسعا مستقرا ومزدهرا اقتصاديا واستمرت الحال في عهده إذ كانت الأموال تتدفق كالمطر على الخزينة العامة للإمارة غير أن كثرة الإنفاق على الحملات الحربية التي وجهها إلى مختلف الأطراف وكثرة الضرائب التي اضطر إلى فرضها لمجابهة المتطلبات المالية للإمارة سببت الأزمات المالية التي زادها سوءا محاولته تخفيف الأعباء الاقتصادية عن الناس من خلال الإيعاز بسك النقود من النحاس بضمان الذهب لكن التجار ما لبثوا أن تركوا التعامل بها بعد مدة وجيزة وحين رفعت من التداول جلب الأهالي كميات من العملة المزيفة الأمر الذي استنزف الكثير من خزائن بيت المال(٥٤) وزادت المجاعة التي ضربت البلاد الأمور تعقيدا وصعبت مهمة السلطان محمد بن تغلق فلم يستطع المحافظة على الإرث الواسع وذلك على الرغم من وصف المصادر له بأنه إداري ناجح وقائد كبير (٥٥) أما السلطان فيروز شاه فقد أبدى اهتماما كبيرا بالزراعة وكان لذلك أثره في توفير الحاصلات لدرجة ساهمت في الصمود بوجه المجاعات وتخفيف آثارها على الناس(٥٦) كما عمد فيروز شاه إلى تخفيف الضرائب التي أثقلت كاهل الرعية فجعل كل همه إزالة هذه المظالم واصلاح الأخطاء التي ارتكبها

سلفه فاخذ على عاتقه دفع التعويضات لعلها تخفف عنهم فعمد إلى إعفاء المزارعين من الديون التي كانت عليهم وقام بإحراق صكوكها التي كانت تحت يد الحكومة وخفف عنهم الضرائب وشدد من مراقبة المحصلين وألغى نظام الإقطاع الذي كان سائدا في ذلك الزمن والذي كان من نتائجه إعطاء الأراضي لرجال الجيش والأمراء وجعلها تابعة للحكومة الأمر الذي زاد في دخلها وانعكس إيجابيا على الرعية(٥٧).

ولتحسين الأوضاع الاقتصادية عمد السلطان إلى إقامة مشاريع عمرانية واسعة أخذت تدر الدخل الوفير على الحكومة والرعية معا مما جعل الحياة تدب من جديد في الإمارة(٥٨) ولم يكتف فيروز شاه بالإصلاحات الاقتصادية بل أبدى اهتماما كبيرا بتامين الرعاية الاجتماعية فبنى دور الشفاء والحمامات ودور العجزة(٥٩) واصدر أمرا يقضي بضمان الدولة لمعيشة المقعدين والعاجزين عن العمل وعلاج المرضى جريا على ما سنه الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) من قبل(٦٠) كما أمر بتدبير أعمال للعاطلين وأعان أصحاب الحرف في ممارسة حرفهم(٦١) وعمل على إزالة وابطال العادات السيئة ومنها عادة الساتي التي تفرض على المرأة الهندوكية إحراق نفسها مع جثمان زوجها(٦٢) وفي هذا الجانب فقد أبدى تسامحا مع الهندوس واحسن معاملتهم على الرغم من عدم تقبله لمظاهر العبادة الوثنية الهندوسية غير انه كان شديد الوطأة مع الملحدين واصحاب المذاهب الإسلامية الشاذة وحريصا على نشر الإسلام فجذب الناس أليه حتى انه كان يرفع الضرائب عمن يعتنق الإسلام ويمنح الهدايا مما كان له اثر طيب في اعتناق الكثيرين للإسلام(٦٣).

رابعا: الحركة العمرانية

أبدى السلاطين التغلقيين اهتماما بالحركة العمرانية ساعدهم في ذلك الرخاء الاقتصادي ،فقد بنى السلطان غياث الدين بن تغلق شاه مدينة اسماها (تغلق آباد) وفيها خزائنه وقصوره ومنها القصر الأعظم الذي جعل قرميده مذهبا حتى إذا ما أشرقت الشمس سطع منها نور عظيم ووهج يمتع الناظر إليها وبنى فيها صهريجا وافرغ فيه الذهب إفراغا فكأنه قطعة واحدة(٦٤) وكان السلطان غياث الدين قد أمر ابنه محمد تغلق أن يبني له قصرا فبناه في ثلاثة أيام وجعل اكثر بنائه من الخشب مرتفعا عن الأرض قائما على سواري خشب واحكمه بهندسة تولى النظر فيها احمد بن اباز الدهلوي واخترع فيه حتى إذا ما وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وانهار فنزل السلطان فيه واستأذنه ولده بعرض الفيلة بين يديه لينفذ تدبيره فلما وطئته الفيلة انهار على السلطان ومات على اثر ذلك وكان الحادث في سنة ٧٢٥هـ (٦٥) ودفن في المقبرة التي انشاها خارج البلدة والمسماة باسم تغلق آباد (٦٦).

أما في عهد السلطان محمد بن تغلق فبني السور المحيط بمدينة دلهي ذات المساحة الشاسعة وامتاز بعرض الحائط الذي بلغ أحد عشر ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب ومخازن للطعام تسمى(الانبارات) ويمشي في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها وفيه طبقات مفتحة إلى جهة المدينة يتخللها الضوء واسفل السور مبني بالحجارة واعلاه بالآجر وأبراجه عديدة ومتقاربة وللمدينة ثمانية وعشرون بابا ويسمى الباب دروازة (٦٧).

إن مما عرف عن السلطان محمد تغلق بأنه صاحب مثل في تفكيره وخططه ولو كانت الظروف مواتية لتحقيق المشاريع التي كان يفكر بها لأفادت البلاد كثيرا ورأى إن من الضروري أن يسعى لتامين البلاد من الخطر المغولي فاتخذ من مدينة (دولت آباد) شمال الدكن حاضرة جديدة لملكه بدلا عن الحاضرة دلهي لابعادها عن الخطر وليتوسط في الوقت نفسه الإمارة الواسعة وليكون قريبا من الأطراف(٦٨). وعمد إلى شق العديد من الطرق إلى دولت آباد وزود سكان دلهي بالمؤن واعد لهم وسائل النقل غير إن إصراره على رحيل السكان جميعا دفعة واحدة إلى حاضرته الجديدة في طريق

طويل طوله سبعمائة ميل أدى إلى نزول كوارث شديدة بهم كالأوبئة التي فتكت بالكثيرين وحين أدرك فداحة ما حل بالناس من المصائب سمح لهم بالعودة إلى دلهي التي كان الخراب والدمار قد حل بها (٦٩).

وكان السلطان محمد تغلق شاه قد بنى مدينة جهان نباه التي كانت مخصصة لسكن السلطان (٧٠) كما بنى خانقا للشيخ احمد بن يحيى المنيري في جبل راجكير وأمر أن يقام به مجلس لنشر علوم الكتاب والسنة والإرشاد(٧١) وبنيت العديد من المقابر في عهده ومنها مقبرة السيد الشريف ناصر الدين مطهر الادهري أحد ندماء السلطان محمد وهي في مدينة مسعود آباد(٧٢).

وفي عهد السلطان فيروز شاه تم تأسيس مدينة كبيرة بالقرب من دلهي سنة ٧٥٥هـ وسماها فيروز آباد وبنى فيها أربعين مسجدا وعشرين زاوية وعشر حمامات ومائة جسر وحفر فيها خمسين نهرا خلال الأعوام (٧٥٦هـ -٧٦٢هـ) وفيها مائة وخمسين بئرا ،كما بنى فيها قلعة حصينة سماها (فيروزة)(٧٣). ومن مآثره الجميلة جامع كبير بدلهي بني فوق تل من الأحجار المنحوتة أبدع نحت ،ومنها المدرسة الفيروزية التي أسسها على الحوض الخاص بدلهي والتي تجمع بين الجمال المعماري والحصانة كما يجري فيها الماء الغزير ويندر جود مثلها في ذلك العصر (٧٤) أما الحدائق فقد أسس ألفا ومائتي حديقة بناحية دلهي وثمانين أخر في سادرة واربعين حديقة في ناحية جتور وفيها سبعة أنواع من العنب(٧٥) ولما كان يتصف به من توجه خاص نحو المشاريع العمرانية فقد اكثر من حفر الترع والأنهار والآبار وبناء المساجد والحمامات والمستشفيات والمقابر والقصور والجسور والقناطر كما انشا ما يقرب من ثلاثين مدرسة في مختلف أنحاء الإمارة(٧٦) وكانت مشاريعه العمرانية تعود بالدخل الوفير على الدولة والرعية الأمر الذي شجعه على المضي في إصلاحاته العمرانية وهذه واحدة من أهم سمات الدولة الراقية المستمرة (٧٧). وبعد وفاة السلطان فيروز شاه ظل سلاطين الهند يتوسمون خطاه في التعمير والإنشاء لقرون عديدة (٧٨).

الخاتمة

لقد كان للإمارات الإسلامية في المشرق الإسلامي أدوارا حضارية عظيمة امتزجت فيها الروح الإسلامية بالحضارات الآسيوية ومنها الهندية على وجه الخصوص،وقد شكلت تلك القلاع المتقدمة للحضارة الإسلامية مراكز إشعاع للفكر الخلاق الذي انصهرت فيه الأجناس وأعطت الكثير للانسانية على هدي التسامح الذي ترجم القدرات الإنسانية إلى فعل حضاري عظيم،والإمارة التغلقية كانت واحدة من النماذج التي قدمها الإسلام بوصفها أنموذجا لتلاقح الحضارات فاستطاعت أن تطور النظم التي اقتبستها عن الهندية في الإدارة إلى أشكال اكثر مرونة واعمق أثرا في بناء المجتمع ومؤسساته كما كان للأسس التي وضعتها العقليات الحاكمة في اختيار الولاة والوزراء والحجاب وغيرهم أثرها الواضح في النهوض بالواقع الإداري السياسي للدولة وعلاقاتها الخارجية مع الممالك والإمارات المختلفة ،وفيما يتعلق بالحركة الفكرية فقد أبدى السلاطين عناية فائقة بالعلوم والآداب المختلفة وأتقن بعضهم جانبا منها كالسلطان محمد بن تغلق الذي عرف بسعة الثقافة والمعرفة بالطب والمنطق ،كما عني السلاطين بالعلماء عناية كبيرة وقربوهم ويسروا لهم سبل العطاء وانشاوا المدارس والمشافي إلى جانب العناية بجوانب الصحة العامة فانتشرت الحمامات وأجريت الأعطية للمقعدين والعاجزين فيما يمكن أن يكون نواة للضمان الاجتماعي الذي تقدمه الدول الحديثة لمواطنيها،ام المكتبات فقد انتشرت بكثرة ونشطت حركة الترجمة لكتب الهندوس في الفلك والمنطق إلى جانب الكثير من المؤلفات التي الفت في عهد السلطان فيروز شاه على وجه الخصوص ،وقد أدرك السلاطين التغلقيين أهمية الاقتصاد في تدعيم أسس الدولة فعنوا بالإصلاحات الاقتصادية والزراعة وحفر الآبار وشق الأنهار عناية كبيرة مما كان له ابلغ الأثر في مضاعفة موارد الدولة ورفع المستوى المعيشي للأفراد، وللجوانب العمرانية نصيب واسع من العناية تشهد على ذلك القصور الفخمة التي عدت آيات في الإبداع العمراني إلى جانب المساجد التي نالت عناية كبيرة ومنها المأثرة الرائعة للسلطان فيروز شاه والمتمثلة بالجامع الفخم فوق قمة أحد تلال مدينة دلهي التي كانت محاطة بالسور الضخم الذي كان السلطان محمد بن

تغلق قد شيده وعززه بسبل الحماية من أبراج وتحصينات ودور لاقامة الحرس ومخازن للطعام تحسبا للظروف التي قد تطرا وتهدد المدينة ناهيك عن شبكة من الطرق التي تربط المدن فيما بينها إلى جانب نشر المقرات العلمية والمجالس التي ترس فيها علم الكتاب العزيز والسنة والفقه والإرشاد وكان لكل هذه الإنجازات العلمية والفكرية والعمرانية أثرها الكبير على الممالك الهندية وغيرها والتي ظلت شواخصها تشهد على هذا الصرح الحضاري الذي لو قيض له أن يستمر لاعطى الكثير للحضارة الإنسانية وهو يترسم هدي الثورة الحضارية التي حملها الدين الإسلامي وترك آثارها في مشارق الأرض ومغاربها.

الهوامش

١- عبد الحي بن فخر الدين الحسني الندوي، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ،ط٢،(دائرة المعارف العثمانية،حيدر آباد،الدكن –١٩٦٢)،١٠٨/٢.
٢- الندوي، نزهة الخواطر،١٠٨/٢،عبد المنعم النمر،تاريخ الإسلام في الهند،ط١،(المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت -١٩٨١)/ص١٨٠.
٣- النمر،تاريخ الإسلام،ص١٨٥.
٤- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة المسماة(تحفة النظار في غرائب أل أمصار وعجائب الأسفار) ،(مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده،القاهرة -١٨٩٩)،ص٧٤.
٥- م.ن،٣٤٤/٢
٦- م.ن،٣٢٥/٢
٧- ابن بطوطة،الرحلة،٣٤٥/٢،النمر،تاريخ الإسلام،ص١٧١-١٧٢
٨- أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري،الوزراء والكتاب،تحقيق مصطفى السقا واخرون،(مطبعة البابي الحلبي وأولاده،القاهرة-١٨٩٩)،ص٧٤
٩- ابن بطوطة ،الرحلة،٣٤٦/٢
١٠- م.ن،٣٤٧/٢
١١- عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة،ط١،(مطبعة دار القلم،تونس-١٩٨٤)،٢٩٨/١
١٢- ابن بطوطة،الرحلة،٣٤٧/٢-٣٤٨
١٣- ابن بطوطة ،الرحلة،٣٤٧/٢،الندوي،نزهة الخواطر،١٨٠/٢
١٤- ابن بطوطة ،الرحلة،٣٤٩/٢
١٥- الندوي،نزهة الخواطر،١٠٨/٢
١٦- ابن بطوطة ،الرحلة،٣٢٥/٢
١٧- م.ن،٣٤٧/٢
١٨- م.ن،٣٤٩/٢
١٩- احمد محمود الساداتي،تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها،(مكتبة نهضة الشرق،القاهرة -١٩٨٧)،ص٤٢
٢٠- ابن بطوطة،الرحلة، ٣٤١/٢
٢١- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٢
٢٢- ابن خلدون ،المقدمة،٢٧٥/١
٢٣- ابن بطوطة،الرحلة،٣٤٥/٣٣٠،٢/٢
٢٤- م.ن،٣٤٩/٢
*هانسي: بلدة ذات سور وقلعة قديمة من أعمال حصار تابعة لولاية دلهي،معين الدين الندوي،معجم الأمكنة التي لها ذكر في نزهة الخواطر،(مطبعة دائرة المعارف،حيدر آباد،الدكن-١٣٥٣م)،ص٥٤
٢٥- ابن بطوطة، الرحلة،٣٢٤/٢
٢٦- الندوي ،نزهة الخواطر،١٠٩/٢
٢٧- بدر الدين حسي الصيني،العلاقات بين العرب والصين،ط١(مكتبة النهضة المصرية،القاهرة-١٩٥٠)،ص٢٠٦-٢٠٨،الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٠ ،يونس الشيخ إبراهيم السامرائي،علماء العرب في شبه القارة الهندية،(مطبعة الخلود،بغداد-١٩٨٦)،ص١٠٣
٢٨- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٠
٢٩- أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي،تاريخ البيهقي،ترجمة:يحيى الخشاب وصادق نشأت،(دار الطباعة الحديثة،مصر-١٩٦٥) ص٨٠٢
٣٠- ابن بطوطة،الرحلة،٣٤٧/٢
٣١- غوستاف لوبون ،حضارة العرب،ترجمة:عادل زعيتر،ط٣،(دار إحياء التراث العربي ،بيروت-١٩٧٩)،ص٢٣٧
٣٢- الندوي،نزهة الخواطر،٩٨/٢
٣٣- شاخت وبوزورث،عالم المعرفة،تراث الإسلام،ترجمة: محمد زهير السمهوري واخرون،تعليق وتحقيق:شاكر مصطفى وفؤاد زكريا،ط٢،(الكويت-١٩٨٨)،١٩٨/١،عادل محيي الدين الالوسي،العروبة والإسلام في جنوب شرقي آسيا،(دار الشؤون الثقافية،بغداد-١٩٨٨)،ص٢٦

٣٤- النمر ،تاريخ الإسلام،ص١٧٨-١٧٩،الساداني،تاريخ الدول،ص٤٠
٣٥- صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي،الوافي بالوفيات،اعتناء:هلموت ريتروسديدرينغ،ط٢،(فرانز شتاير،فيسبادن -١٩٨١)،١٧٣/٣
٣٦- الصفدي،الوافي بالوفيات،١٧٣/٣،ادوار جرانفيل براون،تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي،ترجمة:إبراهيم أمين الشواربي،(مطبعة السعادة،مصر-١٩٥٤)،ص٦٢
٣٧- إسماعيل العربي،الإسلام والتيارات الحضارية في شبه القارة الهندية،(الدار العربية للكتاب،طرابلس-١٩٨٥)،ص٤٧،الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٠
٣٨- الندوي،نزهة الخواطر،١٠٧/٢
٣٩- الصيني،العلاقات،ص٢٠٦-٢٠٨،محمد إسماعيل الندوي،تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية،ط١(دار الفتح،بيروت-لات)،ص١٣٩،الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٠
٤٠- الندوي،نزهة الخواطر،١٠٩/٢
٤١- م.ن،١٠٩/٢-١١٠
٤٢- النمر ،تاريخ الإسلام،ص١٨٢،الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٢
** نكركوث: قلعة حصينة عظيمة البناء على راس جبل شاهق في ولاية البنجاب فتحها السلطان محمود الغزنوي سنة ٤٠٠ه ،الندوي،معجم الأمكنة،ص٥٣
٤٣- الندوي،نزهة الخواطر،١٠٩/٢،النمر ،تاريخ الإسلام،ص١٨٤
٤٤- الندوي،نزهة الخواطر،٢/٠٩،حسن احمد محمود،الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى،(دار النهضة العربية،القاهرة-لات)،ص٢٣٨ الندوي ،نزهة الخواطر، ١٠٩/٢
٤٥- شاخت وبوز ورث،تراث الاسلام،١٩٩/١،الالوسي،العروبة والإسلام،ص٢٦
*** الملتان:مدينة نحو نصف المنصورة وتسمى فرج بيت الذهب وبها صنم تعظمه الهند وتحج أليه من أقاصي بلدانها وسميت الملتان بهذا الاسم نسبة إلى الصنم الذي فيها ،أبو اسحق إبراهيم محمد الفارسي الاصطخري،المسالك والممالك،تحقيق: د.محمد جابر عبد العال الحسيني،مراجعة:محمد شفيق غربال ،(دار القلم،القاهرة-١٩٦١)،ص١٠٣-١٠٤.
٤٦-رحمان علي مرحوم،تذكرة علماء الهند،(دلهي-لات)،ص٤٤
٤٧- ابن بطوطة،الرحلة،٣٢٩/٢
٤٨- عبد الحق المحدث الدهلوي،أخبار الأخبار في أسرار الأبرار،(دلهي-١٣٣٢)،ص١٩
٤٩-السامرائي،علماء العرب،ص٨٩
٥٠- الندوي،نزهة الخواطر،١٧٥/٢
٥١- الدهلوي،أخبار الأخبار،ص٩٤
٥٢- النمر،تاريخ الإسلام،ص١٧٤-١٧٥
٥٣- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤١
٥٤- النمر،تاريخ الإسلام،ص١٧٥
٥٥- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٢
٥٦- النمر تاريخ الإسلام،ص١٨١،احمد شلبي،موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،ط١،(القاهرة -١٩٨٣)،٢٨٧/٨
٥٧- النمر ، تاريخ الإسلام،ص١٨٢،شلبي،موسوعة التاريخ،٢٧٨/٨
٥٨- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٢
٥٩- النمر،تاريخ الإسلام،ص١٨٢
٦٠- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٢
٦١- م.ن،ص٤١
٦٢- النمر ،تاريخ الإسلام،ص١٨٢-١٨٣
٦٣- ابن بطوطة ،الرحلة،٣٤٥/٢، الندوي،نزهة الخواطر،٨٢/٢
٦٤- الندوي،نزهة الخواطر،٩٨/٢
٦٥- ابن بطوطة،الرحلة،٣٤٥/٢
٦٦- م.ن،٣٢٦/٢
٦٧- احمد عطية الله، القاموس الإسلامي،(مكتبة النهضة المصرية،القاهرة-١٩٦٣)، ٤٨٠/١، الساداتي، تاريخ الدول،ص ٤١
٦٨- النمر،تاريخ الإسلام،ص١٧٧-١٧٨،الساداتي،تاريخ الدول،ص٤١
٦٩- ابن بطوطة،الرحلة،٣٢٦/٢
٧٠- السامرائي،علماء العرب،ص٥٤
٧١- ابن بطوطة،الرحلة، ٣٢٥/٢
٧٢- الندوي، نزهة الخواطر،١٠٨/٢،النمر،تاريخ الإسلام،ص١٨٢
٧٣- الندوي،نزهة الخواطر،١٠٩/٢
٧٤- الندوي،نزهة الخواطر، ١٠٩/٢،النمر،تاريخ الإسلام،ص١٨٢
٧٥- النمر،تاريخ الإسلام ،ص١٨٢
٧٦- م.ن،ص١٨٢-١٨٣
٧٧- الساداتي،تاريخ الدول،ص٤٢